

فطر ناسرو عنه فبأهرو بنا

بدا صوته مرتعشا تخفق فيه رجولة تأبى أن تكون
ذليلة ، فيكبح جماحها ويتكلف عدم الاكتراث وهو يقول :
فقط أريد أن أعيش .

قلت ولكنك تسألني البحث عن عيش ذليل .
- ذليل ؟ إن جوع يوم واحد يا سيدتى ، كفيل بأن
يمحو هذه الكلمة من قاموس ريائنا العجيب ، وقد يقذف
بالإنسان ورام إنسانيته وإنسانية الناس جميعا ، فلا يهتم
فى سبيل تهدئة ثورة أمعائه ، هل يهيم مع الحيوان يأكل
العشب ويقتات بقشور البطيخ وورق النبات ، أو يشور
على القوانين فيسرق ويختلس .

- إذن فأنت تصر على أن أبحث لك عن منزل تخدم
فيه ؟ إنى لمشقة على رجولتك يذلها الزمن ، فتال لقمتك
مغموسة فى الذل والمهانة .

- وما العار فى أن أكون خادما ؟ أو أنال طعامى أجرا

على عملى ؟ ومع هذا فأرجو أن أوفر عليك شفقتك . فأنت لا تشفقين على رجولتى ، وإنما - اغفرى لى صراحتى - تخجلين من أن يعمل رجل تربطك به صلة قرابة بعيدة ، فى منازل معارفك كخادم . لا ألومك على هذا بل أوكد لك أننى سأخفى عن الناس جميعا ، أن أختى كان زوج ابنة خالة أهلك . لماذا يبدو عليك الألم هكذا ؟ أو تظنين أنى أتألم ؟ أنت إذن غبية ، معذورة فى غبائك . لقد مرت علينا فى الريف أيام كان كل منها عمرا من الشقاء كاملا ، كنا نضع فى « المشنة » بضع لقعات من الخبز الجاف ونجلس حولها - أنا وأمى وزوجى وطفلى - أتناول اللقمة متباطئا ، وأضعها فى فمى فى بطن أشد . ثم أطيل المضغ حتى أترك للباقيات فرصة الأكل دون أن يشعرون بأنى إنما أظهار بالأكل . كانت هذه العملية تضغط على قلبى بألم ، لولا نبل التضحية ، لكاد يهدمنى . غير أنى نظرت عفوا إلى زوجتى نظرة شاردة عجلى ، فأحسست بأنى أختنق . والتفت عامدا إلى أمى فإذا بقلبى ينخلع ، وكأننى من هول الألم فى ذهول عن الألم ، كانت كلتاها تتكلف الطعام وتعانى التجربة الهائلة التى كنت أعانيها ، كان كل منا يخدع نفسه ويضلل رفقاءه ، أبعد هذا تظنين أن فى خدمة

البيوت مذلة ومهانة ، وأية عزة أبقتهما لي نظرتني إلى أمي وإلى زوجتي ، وهما تتظاهرا أن بالآكل . وتبطئان في المضغ كأنما هما موكلتان بتنفيذ الحكمة الطبية « أطيلوا المضغ » في دقة بالغته ، لقد عدت حينئذ طفلا ذليلاً مسكيناً يود لو يبكي ويسرف في البكاء ، وأحسست بسهم يخترق أحشائي حين سمعت أمي تردد في مسكنة وخضوع ، الحديث الشريف « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

قلت وأنا أغالب الدمع :

- أإلى هذا الحد المؤلم وصلت بكم الحال في الريف ؟
ومع ذلك فأنا لا أفهم فيم يأسك وعلام الحزن ؟ الرأي
عندي أن تعود إلى القرية الحبيبة ، فاستأجر لك فداناً .
- وبعد ؟

- ازراعته قمحاً ثم ذرة ، تأكلون منهما طول العام ، ثم
ازراعته في المرة الثالثة قطعاً لسداد الإيجار ، وأجر السهادر
والعمال .

- كل هذا جميل ومعقول ، بشرط أن نسمعه ونقوله ،
أما إذا تعدى القول إلى العمل ، فهنا يتبخر المنطق ، ويطير
العقل ، وتسخر منا الحقيقة المروعة ، لكي أستأجر فداناً

يجب على أن أدفع عشرة جنيهات للمالك ، وخمسة للعمال حين
الرى وحين محاربة الحشرات ، وحين الجنى والحصاد .
وثلاثة جنيهات للسماذ فى ثلاث زروعات ثم يجب أن يكون
لدى حمار وجاموسة . وأن يتوافر لهما طعام ليتنا نجده
لنا كله نحن . (٣)

فإذا دفعت هذا كله من المحصول ، فلن يبق لنا إلا
ما يكفيننا شهراً واحداً مع شديد التساهل ، خبزاً فقط ، ثم
لا كساء ولا طعام ، وهذا هو ثمرة جهاد عام طويل .
يا سيدتى ، أنا لم أفر من القرية إلى المدينة إلا بعد
أن أجهدت نفسى فى التفكير فاحتسبها يدا عند الله ، لن
ننساها لك ، وابحثى لى عن عمل خادم ، فسأجد ما آكله ،
وأبعث أجزتى إلى من أشقاهم الله بى ، وبعد فليست أطلب
إلا عملاً شريفاً ، لا أمد يدي للسؤال ، وإنما أبحث عن عمل
أعيش به .

قام المسكين إلى الصلاة . فالفلاح المصرى يذكر ربه
فى السراء والضراء ، يذكره فى الأولى شاكراً ، وفى الثانية
راضياً ، قام وتركنى أفكر ؛

وهاجمتني الذكريات . . .

ذكرت أن هذا البائس هو أحد الآلاف الكثيرة التي
نزحت وتنزح من الريف إلى المدن ، في سبيل لقمة ذليلة
متواضعة .

ذكرت ثلاثة من أقوى شبان قريتنا ، جاءوا منذ شهرين
إلى القاهرة ، واشتغلوا في أحد المخازن ، يحملون (العجين)
من البيوت ويعودون به خبزاً في آخر النهار قانعين بثلاثة
قروش لكل منهم وخمسة أرغفة شهية .

وذكرت أخوين من جيراننا في القرية ، يهزان بالضعف
ويحتملان أشد الجهد ثم لا ترى للتعب أثراً عليهما ، تركا
القرية واشتغلا بخدمة أسرتين ، فأما أولهما ، فيحمل سيده
الطفل ويدله ، ويسير بسيدته الشابة التليذة بالسنية
الثانوية ، وأما الآخر فيحمل النسلة ويذهب إلى السوق ،
يشترى الفجل والبصل والخيار .

ومددت يدي أمسح دمعة حارة ، ألهبت وجنتي حين
ذكرت أبا إحدى صديقتي الريفيات . كان في رغد من العيش
وسعة يعيش على غلة أفدنة ثلاثة ، ويعمل مع ولديه في الحقل
راضين قانعين ، ثم ألحت عليهم اللازمة فاستحال عليهم دفع

الأموال الأميرية . ثم أعلنهم المحصل ألا فرار من بيع
أفدتهم - وهى حياتهم - بالمزاد . فقر وعار فأين الرحمة ؟
رأتها أعينهم العمياء فى بنك رهونات . وفى عام واحد
غلق الرهن ! قشتتوا فى البلاد لم يعرف أحد مصيرهم ، إلا
أنى رأيت أحدهم يتقدم إلى ذليلا بأوراق اليانصيب ،
يا سبحان الله ! ألئن باع فى يومه خمس ورقات ، فكم يكون
مكسبه فيها ؟ قرش ، قرشان ؟ اللهم رحمتك !

يا بائع الفجل بالمليم واحدة . كم للعيال وكم للجلس البلدى ؟
دست فى يده خمسة قروش ، فتفرس فى وجهى ثم
قذفها على الأرض ، وفر من أمامى كالجنون لا يعى .

ثم ذكرت أيضاً خمسة شبان أعرفهم كانوا يشتغلون فى
زراعة أحد أقاربى ، واستغنى عنهم ، فجاءوا إلى القاهرة ،
وانضم أربعة منهم فى سلك حرفة عجيبة ، يحملون الخيار
فينادى أحدهم (خيار يا لوبيا) فيرد الباكون بصوت واحد
فيه حزن رغم ما له من جرس (عشرة بقرش) .

آه ! إن صوتهم لا يزال يلاحقنى فى كل مكان داويا
حزينا متهدجا . وأما الخامس فيبيع أكياس النفطالين . ومحله
المختار سلم (الترام) . وأقسم لقد سمعته بأذنى عند باب الخلق

يقول : « ما حدث عندنا نفتالين في البيت ؟ نا كل إحنا وأولادنا نفتالين بأه يا ناس يا هوه »

والآن إلى مصر المسكينة . . .

أرأيتكم هذا المصير المحزن الذي يصير إليه أبناؤها الأتقياء ؟
لقد فكرنا طويلا في جيوب الأجانب ، تلتهم الثروة المصرية ، فجاهدنا في تشجيع الصناعة المصرية ، وفكرنا طويلا في البحر الأبيض المتوسط ، يفرغ فاه فيلتهم ماء النيل أحوج ما نكون إليه ، فأنشأنا الخزانات وأقمنا القناطر والسدود .

وفكرنا في المخدرات تتقد نارا ، وقودها ثروة أبناء مصر ، فتبخر قواهم وعقولهم وحيويتهم ، فأنشأنا مكتب المخدرات ، تساعد مصالح الحدود وخفر السواحل والطيران .

وفكرنا في كل شيء ، إلا شيئا واحدا هو مع شديد الأسف أخطر الأشياء .

لم نفكر في المدن تجتذب شبان الريف ، لأن انحطاط مستوى المعيشة في القرية ، يغري أبناءها بالنزوح إلى المدينة ، وفيها عيش وماء نقي ، وفيها هو ميسور .

لم نفكر فى الأعمال الحقيمة ، يشتغل بها أقوى شبان الريف ، وأقدرهم على خدمة مصر .

إنهم يدللون الأطفال ويخدمون فى البيوت فهل يسمع المصلحون ؟ وهناك فى الريف ، أرض خصبة غنية تحتاج إلى سواعدهم ، وثروة مخبوءة فى الأرض ، تريد أبناء الريف الأشداء .

وإذا مضينا فى تغافلنا عن هذا الخطر ، فمن للقرية والزراعة إذن ؟ ألا فاسمعوها كلمة صريحة : إن استمرار نزوح الشبان من القرية ، واحترافهم أبسط الحرف فى المدينة ، سيؤدى بنا الى المجاعة ولن يشفع لنا حينئذ خصب التربة المصرية ، وسحر ماء النيل .

لقد اشتغل بعض الشبان فى مخبز ، وآخرون فى خدمة البيوت ، فهل خسروا شيئاً ؟ لا ، فهم يعيشون عيشة إن لم تكن أفضل من معيشة الريف فلن تنحط عنها ، ويشربون ماء نقيا منعشا ، ومصر هى التى خسرت وتخسر ونحن لا هون .

والآن أتساءل ، إذا كان هذا هو مقدار النازحين من قرينتنا ، وهى فى صميم (المنوفية) أخصب بقاع العالم ، فما هو

حال قرى شمال الدلتا والوجه القبلى ؟
ثم لا تنسوا أن أبناء الصعيد الذين يملئون المدن
وخاصة مدينتى مصر والإسكندرية ، هم من صميم الريف .
حدثنى أحد كبار الملاك فى مديرتى الشرقية والدقهلية
قال : إن مائة فدان من أرضنا لا تنتج ما تنتجه عشرة أفدنة
من أراضى المنوفية ..
لا تحسبوه مغاليا .

والعلة ليست ضعف الأرض كما توهمت وكما توهمون ..
بل هى فى قلة الأيدى العاملة .
مصر بلاد زراعية ، وستظل هكذا ما عبد الله فى
الأرض ، ثروتها فى أرضها ونيلها ، وحياتها فى يد الفلاح
الجائع المحروم ، فلا تنسوا هذا واذكروه دائما .
هل نلوم الفلاح ؟ إنما إذن نكون كمن :
ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له : إياك إياك أن تبطل بالماء !
أصلحوا القرية فيتشبت هو بالبقاء فيها ، مهدوا له عيشا
سهلا ميسورا فى تواضع ، فلا يستبدل به حياة المدن . إنه
يعشق الريف وهو يتركه محسورا ملتاعا بعد أن تعييه الحيل ،
ويعد أن يجد العيش فيه غير مستطاع .

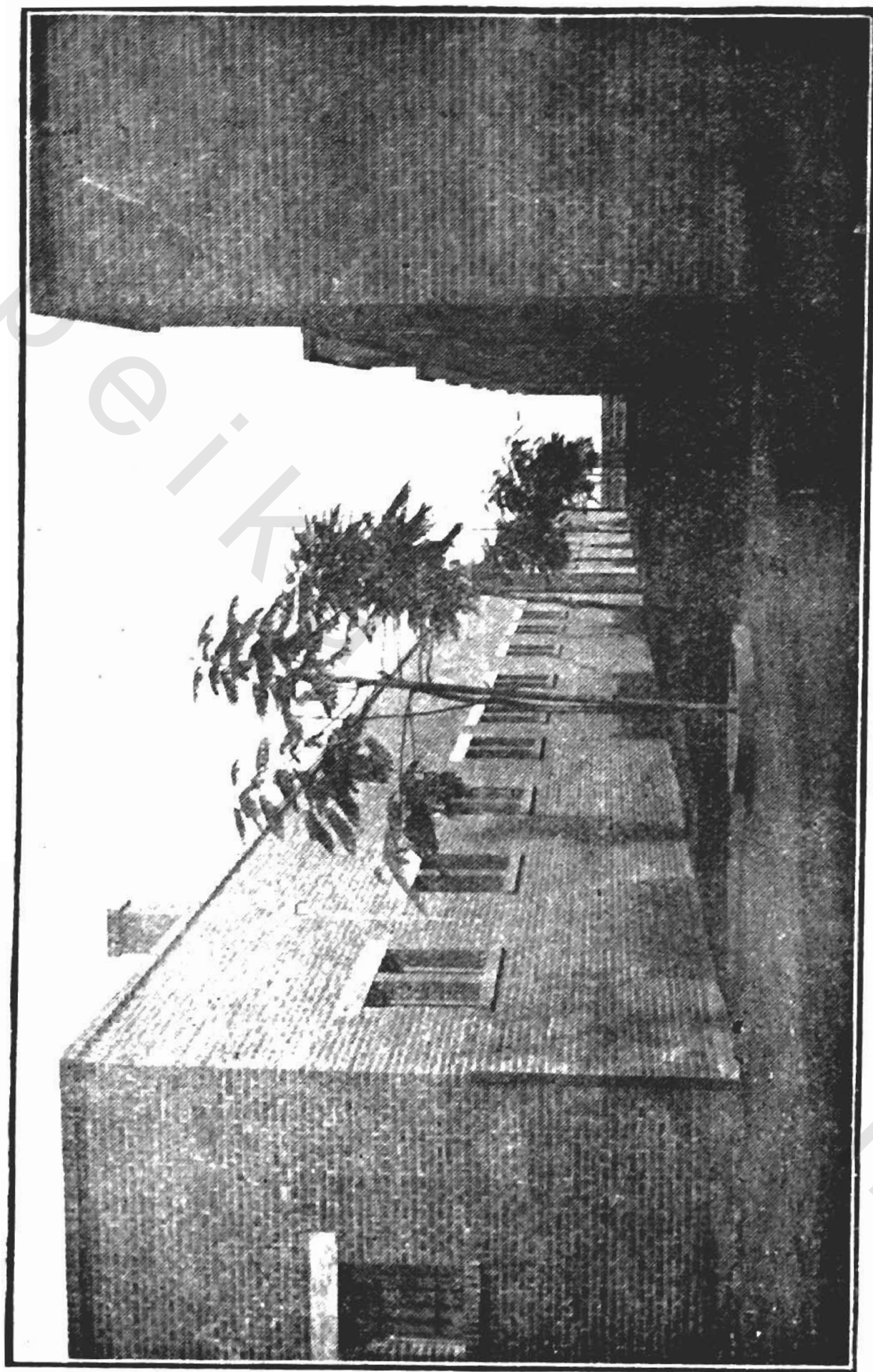
حين تفكر الحكومة في مصايف الأطفال ، يجب ألا تنسى أن في الريف أطفالاً قد لا يجدون كسرة أو ستره ، يذهب الرمد بجمال عيونهم وتضرب عليهم الذلة والمسكنة .
وحين تفكر مصلحة السكك الحديدية في تسهيل النزاهة المتوسطى الحال ، بقطر البحر والنزاهة ، يجب ألا تنسى أن في الريف رجالاً مصريين ، يشربون الداء مع الماء ، ويحيون حياة لا نرضاها لحيواناتنا .

إن أول الواجبات هو تيسير العيش الممكن ، لمن صارت حياته أقل من الممكن .

نحن لا يضيرنا أن نقضى الصيف بعيداً عن السواحل فلكل بلدة في مصر مغانيها ومناظرها الجميلة ، ولمصر في ليالى الصيف هواء منعش جميل ، ولن تفارق أرواحنا أجسادنا إذا لم تسعفنا الحكومة بتسهيل وسائل الترف لنا ، ولكنا جميعاً ، بإهمالنا الفلاح ، نخسر اليد العاملة التى تمدنا بالطعام ، والخادم القنوع الأمين الذى يفنى فى سبيلنا صابراً صامتاً .
وكلنا فى الخسارة سواء .

إن الفلاحين - سواء رضينا أو كرهنا - هم أعضاء من
جسم الأمة ، لا يجوز التغافل عنهم وإلا فالويل لنا منا .
فلنفكر جدياً في مصلحة القرية وإصلاحها ، ولنصلح
حال الفلاح بمال الفلاح ، فإن مهزلة المهازل أن يكون لنا
معشر سكان المدن المحقوق ، وعلى الفلاحين الواجبات -
القرية ! إن فيها مقتل الأمة ، كما أن منها حياتها .





ماذا أعمدنا للغمر ؟

أفتغفر لى صديقتى القروية ، جهري بما يغمرها من
فقر وشقاء ؟ لقد تشبثت بى يوم الرحيل ، تسألنى فى تواضع
ذليل أن أنسى الصور المحزنة التى طالعتنى فى القرية وأن
أذكر دوماً جمال الريف وسكونه وفتنته ، حتى أحن إلى
زيارته ، ثم تفرست فى وجهى ، وأحسبها لمحت فى عيني
صورة الألم الدفين فأشاحت بوجهها ثم قالت وكأنها تحدث
نفسها : ستشغلين عنا وسندشغل بك ! متى العودة ؟ هل
أطلب محالاً إذا سألتك أن تنسى شقائى وشقاء الريف وألا
تدعى تلك الذكرى تفسدك علينا وتفسد عليك حياتك ؟
وتحرك القطار وهو يلهث فى حشرجة بطيئة ، وظلت
هى تشير بيديها إلى أن ابتلعها الظلام ، وبذلت مجهوداً
جباراً لأنسى القرية فلم أوفق ، كانت الصور التى شاهدتها
حنالك ، تتابع سراب الأسام منيلى . متلاصة مترنمة . مستبعدة
بأفكارى .

ويح الفتاة التعسة ! إن كبرياءها تخفى الكثير من الألم
والعساف وإن لها جلدًا عجيباً ، كان أبوها يملك ثلاثة أفدنة
يوم بنى بأمها ، وأحاطت به ظروف عصيبة كفيفة بابتلاع
عشرة أفدنة وعشرين ولكنه ظل محتفظاً بها حتى اليوم ،
بعد أن كلفه ذلك ثمنًا غالياً . واليوم ؟ لقد أصبح رب عائلة
كبيرة فله ابنته الشابة وابنه المراهق ، وثلاثة أطفال ، وقد
مات أخوه ولم يخلف شيئاً إلا زوجة حزينة محطمة وأربعة
أولاد أذلهم اليتيم والفقر ، والرجل يعول هؤلاء وهؤلاء
بأفدنته الثلاثة .

وتلك مسألة المسائل في الريف اليوم ، فالأراضي
الزراعية في مصر لا تزداد ، بينما يزداد عدد السكان في
سرعة عجيبة . ومصر التي تبلغ مساحتها حوالي مليون
كيلومتر مربع لا يصلح للزراعة منها إلا « ٣٢٠٠٠ كم^٢
م » أو أقل من ذلك من المساحة الكلية ، وهذا الجزء الصالح
للزراعة يسد حاجة عدد محدود من السكان ، ويزدحم
بالسكان إلى حد كبير ، فأكثر من ٩٩٪ منهم يسكنون
في الأراضي الزراعية المحدودة والموزعة في الوادي والدلتا .
ثم إن هذه الآلاف المحدودة من الكيلومترات

المربعة الصالحة للزراعة ، موزعة بين الأفراد توزيعاً عجيباً ، فعدد الذين يملكون من عشرين فداناً إلى مائة ومائتين قليل في حكم النادر ، بينما يتضخم عدد كبار الملاك الذين يملك الواحد منهم أقل من مائتي فدان إلى عدة آلاف ، تضخماً هائلاً لا يشبهه في الكثرة إلا عدد صغار المزارعين البؤساء ، الذين يملك الواحد منهم أقل من خمسة أفدنة ، وأحسب أن ضخامة عدد كبار الملاك توهم البعض منا بأننا قوم أثرياء ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، ففي هذا التقسيم دلالة على فقد التوازن في تملك الأرض الزراعية ، وعلى أن العدد الضخم الذي يعبت بالنضار ويتراكم المال لديه إلى حد الحيرة في كيفية إنفاقه ، يقابله عدد ضخم كذلك ، لا يكاد يجد الكسرة من الخبز يتبلغ بها .

وقد صغار الملاك تسير إلى نهاية اليمة ، إذا لم يوفق أولو الأمر إلى إيجاد حل حاسم عاجل ينقذها . . . إن الموظفين المصريين مثلاً ، ينعمون بحياة مترفة إذا قيست بحياة الفلاحين الأشقياء ، ومع هذا نحن نصغى دوماً إلى صيحات عالية ، يشكون بها من إطالة فترة العلاوات ، نصغى إلى شكواهم وهم يتساءلون كيف يسير المرتب سيراً بطيئاً

وأسرة الموظف تزداد فتكثر مطالبها ؟ بينما تنبعث من الريف صيحات خافتة لاهثة ، ترسلها حناجر منهوكة أضعفها المرض وذهب بقوتها الشقاء ، تتساءل هي الأخرى كيف يعول الرجل أسرة يزداد أفرادها كل عام بالزواج والتناسل ، بقطعة أرض لا تزيد إن لم تنقص ؟ تنبعث هذه الصرخات خافتة ولكنها لا تصل إلى آذاننا ، إما لأننا عنها في شغل ، وإما لأنها لا تملك من الوسائل ما يساعدها على إبلاغ صرخاتها إلى الرأي العام ، قوية عالية ، فيها قوة الحق ومرارة الاحتجاج ، ودوى الشقاء .



لم تعد الأرض مصدر ربح لصغار المزارعين ، كما اعترف بذلك سعادة وزير المالية القائم على ثروة البلد ، والفلاح اليوم يدفع الضرائب التي كان يدفعها منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، ولا يزال يسرى عليه الأمر العالى الذى وضع فئات الضرائب على أساس ٢٨ و ٦٤ ٪ من قيمة الإيجار المقدرة بمعرفة لجان شكلت خصيصاً لهذا الغرض فى عامى ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ لا بمعرفة لجان مركزية تشكل

فى كل عام ، وتقدر الايجار تبعاً للزمان والمكان . وفى القرية يحيا المزارع حياة أليمة لا تساعد على كثرة الإنتاج او على الاحتفاظ بمستوى إنتاجه العادى ، وتفترسه الأمراض ، وتلتهم الآفات الزراعية ثروته ، فإذا استطاع بعد هذا كله أن يخلص بأرضه من براثن الأزمة ، وأنياب المرابين ، فذلك مجهود جبار نقنع به منه وتلك نتيجة سارة يشكرها هو لله جل شأنه .

وفى هذا جواب لمن يتساءل كيف لا تزداد ثروة الفلاح بعمله وباستغلالها . اطلبوا الماء من الحجر الصلد واسألوا الجبل أن ينتقل من مكانه ، ولكن لا تسألوا الفلاح أن ينمى ثروته . إن الضرائب تبتلع نصف إنتاجه وثمان المحصولات فى تدهور مستمر ، والفلاح بشر ، ولا حتماله حد معقول لا يتعداه . هذا الحد أشبه بما يعرف فى علم الطبيعة بدرجة نهاية الضغط ، حيث تنهشم الأجسام عندها مهما عظمت صلابتها . والفلاح المصرى كما يقول سعادة وزير الزراعة « وهب صبرا على العمل وقناعة فى المطالب ، وبساطة فى العيش » ولكنه لم يوهب قوة فوق البشرية . فحسبنا منه إذن أن يحافظ على ملكيته الصغيرة

أما أن نعجب لعدم نمائها . فاسألوا عن ذلك حياة الفلاح .
ولكن لا تسألوا الفلاح !

ونحن نحيا في بلاد تزدحم بالسكان إلى حد التخمة ،
وتكاد تضيق بنا لولا رحمة الله ! والفلاح يتزوج ، ويفعل
ذلك مبكراً لا يعوقه عن الزواج فقره وعوزة مهما اشتدا ،
والقرية لا تعرف شيئاً اسمه أزمة الزواج ، فيكفي لصدّاق
الفتاة ما يمكنها من شراء لوازمها الضرورية المتواضعة ،
ويكفي لتأثيث البيت صندوق خشبي للملابس ، وحشية من
القطن نادراً ، ومن قش الأرض حيناً ، وقطعة من الحصير
أحياناً ثم عدد قليل من الأوعية النحاسية تدخرها الفتاة قبل
أن تتزوج .

والفلاح يرغب من النسل ، لا يزهده فيه عوز ولا
فاقة ، ولا يرغبه عنه جوع واحتياج . ولست تدري السر
في ذلك ! قد يكون لأن عيشه بلغ من الضعة حداً لا يمكن
تجاوزه ، فوجود الأولاد أن يزيد في شقاء عيش هو غاية
الشقاء ، أو كما يقول الشاعر :

ولو أنى استزدتك فوق ما بي

من البلوى لأعجزك المزيد .

ولو عرضت على الموتى حياة

بعيش مثل عيشى لم يريدوا .

وقد يكون لأن الفلاح يحيا على الفطرة ويؤمن بالله ،
ويثق فى أن خالق الطفل كفيل برزقه ، وأن المولى عز
وجل أرحم بالولد من أبيه وأمه .

وفى سرعة عظيمة يزداد عدد سكان القطر المصرى ،
ولسوف يزيد من هذه السرعة ارتقاؤنا فى الشؤون الصحية ،
والنقص الظاهر فى الوفيات تبعاً لذلك ، ويقابله دون شك
زيادة فى المواليد ، ولو كانت هذه الزيادة ناشئة من ازدياد
الأسر الغنية الموفورة الرزق لما قابلناها إلا بالغبطة والحمد ،
ولكن الأغنياء فى مصر هم المتعلمون فى الغالب ، ولهم من
مالهم وعلهم ما يجعلهم يتحكمون فى عدد الأولاد إلى حد
ما ، وأغلب الشبان المترفين لا يعرفون الزواج المبكر ،
حيث تلهمهم عنه ثروتهم التى تفتح لهم أبواباً من اللهو والمتعة
لاحظ للفقير فيها ، بينما الأسر الفقيرة تزداد ويزداد فقرها
وكل زيادة فى عدد سكان البلاد هى زيادة فى عدد مواطنينا
الفقراء .

وانى لألمح شبح العاصفة فى نهاية الأفق يقترب فى ببطء

ولكن بالتأكيد ، فهل نأهوا عن الخطر كعادتنا حتى نصبح ونمسي فإذا بمصر تضيق بسكانها ، أم ماذا أعددتنا لهذا الغد الخطير ؟

ليس لمصر مستعمرات حتى يجد أبنائها مكانا لعيشهم ، وحتى السودان الشقيق ابتلعتة السياسة الانجليزية في جوفها ، وتمخضت لنا عن نظام هو أعجوبة الأنظمة في القرن العشرين . فرضت علينا أتاوة ندفعها سنويا للحكومة السودان ، كأنما هي الجزية التي كانت الأمم المغلوبة على أمرها تدفعها للدولة الحاكمة الغالبة ، ويبقى لنا بعد هذا كله ، قطعة واحدة من الأرض يحدها البحر الأبيض المتوسط شمالا والسودان جنوبا والبحر الأحمر شرقا والصحراء غربا ، وفي هذه القطعة سكن أبناء مصر في أوائل القرن التاسع عشر حين كان عددهم مليونين ، وفيها سكنوا في أواخر ذلك القرن حين كان عددهم لا يتجاوز سبعة ملايين ، وفيها سكنوا في الربع الأول من القرن العشرين حين كان عددهم اثني عشر مليونا ، وهم يسكنون فيها الآن بينما يتجاوز عددهم ستة عشر مليونا ، وفي تلك الحالات كانوا يستغلون المزرعة المعروفة ، التي لا تنمو إلا ببطء عجيب . فهل سيستغلون القطعة نفسها

حين يصبح عددهم عشرين مليوناً في القريب وثلاثين أيضاً؛
أنا أضع الآن أرقاماً رسمية توضح مقياس زيادة
السكان ، التي تكاد تتضاعف في فترات متقاربة ، كما حدث
في سنة ١٨٤٦ حين زاد عدد السكان بقدر الضعف في
ربع قرن ، ولمصلحة الصحة برنامج صحي للمستقبل ، لا أشك
في أنه سيجعل الزيادة أكثر إسرافاً وسرعة ، وهذه الأرقام
ووحدها تدعو الى التأمل وتقتضى منا اليقظة :

عام	عدد السكان	مصدر الإحصاء
١٨٠٠	٢٠٠ ر ٢٤٦٠	من الحملة الفرنسية
١٨٢١	٢٤٠٠ ر ٥٣٦	من كشوف الضرائب
١٨٤٦	٤٤٠ ر ٤٧٦	من تعداد المساكن
١٨٨٢	١٣١ ر ٨٣١	من تعداد الأفراد
١٨٩٧	٤٠٥ ر ٧٣٤	من تعداد الأفراد
١٩٠٧	٣٥٩ ر ٢٨٧	من تعداد الأفراد
١٩١٧	٩١٨ ر ٣٥٠	من تعداد الأفراد
١٩٢٧	٨٦٤ ر ٢١٧	من تعداد الأفراد
(الإحصاء الأخير)		

تروية صرخة

طال حديثي عن الريف ولكن ما حيلتي؟ كلما حاولت الصمت التماسا لتهدئة ذهني المكدود، شعرت بأنني إنما أطفئ النار بالزيت. وأقسم غير حاشة، أنني يوم ذهبت إلى الريف لم أكن أنوى أن أكتب حرفا واحدا لأن الطبيب أمرني ألا آخذ معي كتابا واحدا، وأن أنقذ نفسي من أكداس الكتب وضوضاء المدن، ولكن كل ساعة قضيتها في القرية، وكل دقيقة، كان لها حديثها وشقاؤها، وأثرها البعيد القرار في نفسي، وكانت كل خطوة في أرض القرية، تنكشف لي عن شقاء أليم يصعب تصوره. ولقد أفلح الطبيب وأفلحت أمي في الحيلولة بيني وبين الكتب، ولكنهما عجزا عن شل ملكة التفكير في دماغى، وسلب قوة الإبصار من عيني! كان يجب أن أكون ساذجة عمياء حتى لا أفكر ولا أرى، أما وقد كنت غيرهما، فقد رأيت وما أهول ما رأيت! كنت أشهد شقاء القرويين، وأنا

صامته مكتوفة اليدين ، ثم ما كدت أعود إلى المدينة حتى شعرت بالأفكار تزدحم في رأسي وتشقيني وتريد انفجارا ففزعت إلى قلبي ، أحاول أن أنفث فيه بعض الآلام المتجمعة في رأسي ، وأن أخفف به شيئا من الضغط الهائل الذي أشعر به جاثما على صدري وفي دماغي .

مساحة القرية : ٣٥٤ فدان .

عدد السكان : ٦١٣ نسمة .

عدد المزارعين وأفراد عائلاتهم : ٥١٣٢ نسمة .

المتوسط بالنسبة للمزارعين ١٤ نسمة لكل فدان تقريبا .

لم أكد أشهد هذه الأرقام حتى زالت دهشتي من فقر

قوم يمشون على أرض من الذهب : أربع عشرة نسمة

بأكلون ويكتسبون ويدفعون الضرائب ويعطعمون

حيواناتهم بربع فدان واحد ؟ إن الفدان يؤجر هناك بثمانية

جنيهاً ، يدفع الفلاح منها ١٦٤ قرشا ضريبة أطيان

وتسعة عشر قرشا ضريبة لمجلس المديرية (١٢ ٪ من ضريبة

الأطيان) وثلاثة وثلاثين قرشا ضريبة للخضر ، ويبقى بعد

هذا كله مبلغ يزيد قليلا عن خمسة جنيهاً ونصف . أمن

السهل أن يتصور أحدهنا إمكان كفاية ذلك المبلغ التافه لمطالب شخص واحد عاما طويلا ؟ كلا بالتأكيد ، ولكن من السهل أن ندرك جميعا إلى أية درجة انحط عيش الفلاح ما دام ذلك المبلغ هو قوام حياة أربعة عشر نفرا !

وفي الغد ؟ سيزداد عدد سكان القرية دون شك ، وستبقى مساحة القرية كما هي دون أقل ارتياب ، فمن لى بعقل آخر أتصور به إمكان حياة الفلاحين في ذلك الغد القريب ؟

لقد بينت في كلمتي السابقة كيف يتضخم عدد السكان في سرعة غريبة ، وكيف يزداد عدد مواطنينا الفقراء بازدياد عدد سكان القطر ، لأن الفقراء والفلاحين هم أسرع المصريين تكاثرا ، وأبعدهم عن فكرتى الزواج المتأخر وتحديد النسل ، كما بينت أنه بينما تزدحم الأراضى الزراعية في الوادى والدلتا ازدحاما لا طاقة لها بأكثر منه ، توجد أراض أخرى في مصر أيضا ، لا تكاد نسبة عدد السكان فيها تبلغ نسمة واحدة لكل ثلاثة عشر كيلو مترا مربعا .

ليست المسألة مسألة الأرض التى نحيا فوقها ، وإنما

يمكن الخطر في الأرض الصالحة للإنتاج ، فالقرية التي تسكنها مائة أسرة وفيها مائتا فدان مثلاً ، ستبقى كذلك حتماً من حيث المساحة ، حين يزداد عدد الأسر إلى مائتين .. ترى هل يحتمل الفلاح شقاء أقسى مما يتخبط فيه الآن ؟ ونحن لا نملك حيال هذه السرعة العجيبة إلا أحد حلول ثلاثة ، أولها تحديد النسل حتى نحفظ النسبة بين عدد السكان ، وبين الأرض الصالحة للإنتاج ، فنحفظ التوازن بين حاجة الاستهلاك والكمية المعروضة له ، وثانيها استغلال ثروتنا غير الزراعية ، لأن سياسة الاقتصار على استغلال الثروة الزراعية لم تعد صالحة للمنافسة في عصرنا الحافل بالاضطراب ، وإن تقوى مصر بها على الكفاح في المحيط الاقتصادي العالمي المضطرب ، وثالثها إصلاح الأراضي البور حتى نجد منفذاً لتضخم عدد السكان وحتى يكفي الإنتاج لسد حاجة المستهلكين الآخذ عددهم يقينا في الازدياد .

فأما تحديد النسل فلا سبيل إلى البحث فيه ، لأن هذه المسألة تتصل اتصالاً وثيقاً بالناحية الدينية ، ولأن

الفلاح كما قلت يرغب في النسل ، ولا يزهده فيه عوز
ولا فقر ، لثقته في الله عز وجل من ناحية ، ولا انحطاط
مستوى معيشته ، انحطاطاً كلياً من ناحية أخرى . على أن
تحديد النسل لا يخلو من خطر ، من حيث الناحية
الاجتماعية ، فليس من المعقول أن تتقدم بنا الأيام وعددنا
لا يتغير ولا يزداد . ثم إن الأمم التي أخذ أبناءها بهذا
المبدأ ، عادت حكوماتها تجار بالشكوى من قلة النسل ،
كأنما هي تخشى الانقراض . وفي إيطاليا قانون يمنح
الأسرة إعانة كلما ازداد عدد أفرادها بالتناسل ، وينظر إلى
رب العائلة نظرة خاصة في الوظائف وأجور المساكن ،
وفي ألمانيا قضى هتلر بأن تمنح العاملة إعانة لتزوج وتترك
عملها ، ولها أن تحل خطيها العاطل محلها ، ولها أن تؤثث
بيتها على أن يدفع الثمن أقساطاً متباعدة معقولة ، لا تشعر
بضيق أو إرهاق ، وقد يبدو هذا كعلاج للبطالة ، ذلك
حق ، ولكنه في صميمه تشجيع لإنشاء الأسر الجديدة ،
وازدیاد عدد الأفراد .

وفي فرنسا تمنح الأم إعانة معينة إذا بلغ عدد أولادها
حداً معيناً ثم يزداد مقدار الإعانة بازدیاد عدد الأولاد .

ونحن أمة تجتاز الآن فترة انتقال حافلة بالقلق والاضطراب ، وعلى كتفها أعباء ثقال من أثر الجهاد في سبيل الحياة منذ عهد البطالسة حتى مارس سنة ١٩٢٢ ، وفي سبيل الحرية والاستقلال غير المزيف حتى اليوم والغد . ولا بد لها في هذا الجهاد من قوة معنوية تستمدّها من أبنائها وقد يكون من الجناية عليها منع التكاثر في الأولاد .

أما استغلال ثروة مصر غير الزراعية فلست أقصد بها مجرد الاهتمام بالصناعة والتجارة ، وإنما يجب أن يتعداهما إلى الثروة المعدنية والحيوانية ، ومصر غنية بهما إلى حد يجهله الكثيرون . إن ارتفاع سعر الذهب حالياً فرصة يجب ألا ندعها تفلت من أيدينا ، فمناجم الذهب في الصحراء الشرقية أهمل استغلالها لعظم النفقات لا للشك في وجود الذهب بها . وتلك العقبة لم يعد لها أثر منذ ارتفاع سعر الذهب ، والأمر لا يحتاج إلا إلى شيء من العزيمة والمثابرة ، ثم إن الأبحاث التي ساهمت فيها مصلحة المناجم

والمحاجر ، أثبتت وجود خامات الزنك والرصاص
بالقرب من القصير ، ويتراكم حجر الزبرجد في البحر
الأحمر إلى درجة كبيرة ، وحجر الزمرد جنوب القصير ،
هذا إلى وفرة البترول والأحجار في مصر .

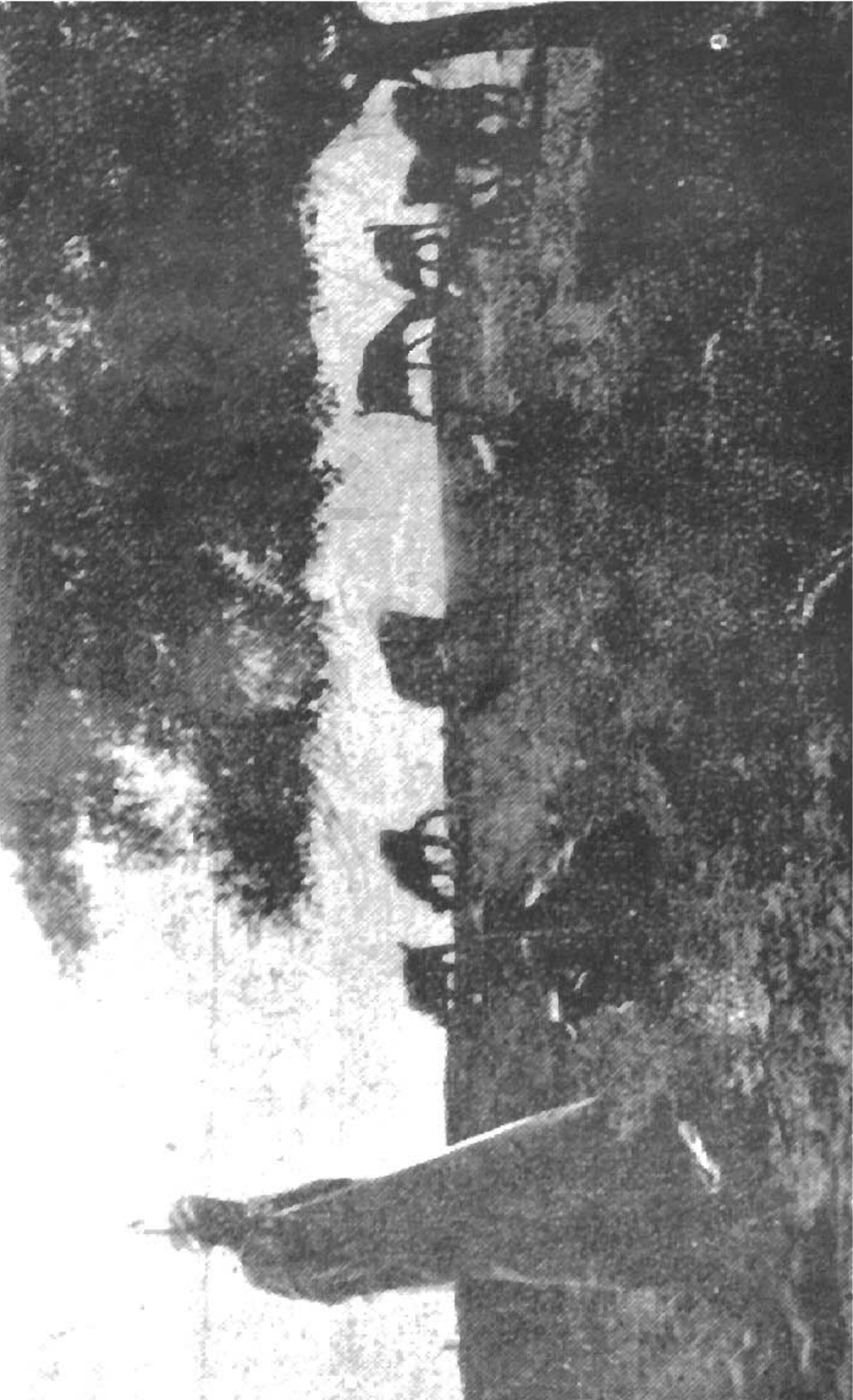
فأما الثروة الحيوانية ، فيكفي دليلاً صادقاً على إهمالنا
إياها كوننا نستورد سنوياً من الأغنام ١١٠٠٠ رأس
ثمناً ١٠٠٠٠ ج م ومن الجبن ٢٤٠٠ طن ثمناً ٢٠٨٠٠٠
ج م ، ومن الأسماك المملحة والمحفوظة ٧٢٧ طن ثمناً
٢٠٨٠٠٠ ج م ، بينما تملك مصر من الماشية عدداً ضخماً
يكفي لتوفير تلك المبالغ الطائلة لو أحسن استغلاله ، ففي
إحصاء وزارة الزراعة لسنة ١٩٣٤ ما يأتي :

٢٩٢٠٣٤ ثوراً و ٦٣٢١٧٤ بقرة فتكون الجملة
٩٢٤٢٠٨ رأساً .

و ٤٣٠٨٣ ذكر جاموس و ٨٤٤٤٩٣ جاموسة
فتكون الجملة ٨٨٧٥٦٦ رأساً .

و ٢٧٣٣٣٧ خروفا و ١٣٤٣٠٣ شاة فتكون الجملة
١٤٠٨٧٤٠ رأساً .

الحجاء



و ١٣٤٠ ١٨٠ جديا و ٥٠٨٢٢٧ عنزة فتكون الجملة
٦٨٨٣٦١ رأسا .

وهذه الأرقام تشير إلى أنه قد آن الأوان للاهتمام
بصناعة منتجات الألبان ، كصناعة رئيسية مضمونة الربح
موفورة الخامات ، ثم إن الأسماك تتراكم في النيل والمياه
البحرية ، وفي البحيرات المصرية ، وقد شاهدت بعيني
رأسى أكواماً من السردين في بور سعيد ، لا تجد من
يشتريها ولو بأبخس الأثمان ، والسردين المصرى كما صرح
سعادة خيرى باشا لا يقل جودة وصلاحيه للحفظ ، عن
الأنواع الاجنبية ، ويبقى لى بعد هذا كله أن أصرح فى
حق و يقين ، أن للأجانب بعض الحق إذا « استغفلونا »
واحتلوا أسواقنا الاقتصادية ، مادمنانهمل موارد الثروة
العجيبة فى بلادنا ، وإلا فقيم الشكوى من الفقر ، وموارد
الثروة لدينا مفرطة شاذة ؟ وفيم سكوتنا عن استغلال الثروة
الكامنة فى كل شبر من أرض مصر ومياهاها ؟

لقد طال علينا الأمد ونحن نتغنى بمصر الزراعية ،
ويبدو لى أن تلك الفكرة قد دعتنا إلى الاستكانة ، وحببت
إلينا الدعة والسكون ، ولكن ها هو ذا الفلاح المصرى

يد مصر العاملة ، لم يعد فيه شيء من القوة يعينه على القيام
بحاجة ملايين المصريين ، فحياته البائسة الشقية قد استنزفت
كل ما فيه من قوة . وهى فى طريقها إلى التهام ما احتازه من
جلد واصطبار ، وهامى ذى الأراضى الزراعية تضيق
بسكانها اليوم ، وسيشتد ضيقها غدا ، أفما آن لنا أن نفسح
المجال لصناعتنا المصرية كي تأخذ نصيبها من الحياة ، وتظفر
بمكانها اللائق ؟

إن لبنك مصر من المجهود الجبار فى إحياء بعض
الصناعات ، ما يكفى ملء شيء من الفراغ العظيم فى نهضة
مصر الصناعية ، ولكن هناك بعض الصناعات التى تقوم
على غير المنتجات الزراعية ، ولا تنال حقها من الرعاية
والاهتمام ، ولست أشك فى أن قليلا منهما ، كفيل بأن يبقى
فى جيوب المصريين مبلغ ٥٠٦٣٤ ج م متوسط قيمة
الوارد من الأثاث سنويا . ومبلغ ٧٤٠٠٠ ج م ثمن
ما نستورده من الأحذية . ومبلغ ١٥٣٠٠٠ ج م ثمن
ما نستورده من الصابون المنزلى العادى . ويحضرنى فى تلك
اللحظة ، حقيقة مؤلمة ذكرها حضرة الرجل المصلح فؤاداً باظة
يك عن دمياط الصناعية ، عند افتتاح المعرض العام ١٩٣٠

حقيقة لا تزال تترك في قلبي أثرا داميا كلما ذكرتها - وقليلًا ما انساها - أكد ما معناه أن الأحذية المحلية تفوق الأجنبية جودة ومتانة. ولكنها لا تروج لأن بعض الأغنياء المولعين بالظهور الزائف ، يفتخرون بلبس الحذاء الأجنبي ، ويرون أن أحذية الشاذلي والرفاعي مثلاً - هما صاحباً مصنعين للأحذية بدمياط - لا تأتلف مع أقدامهم الأنيقة الرشيقة . وقد رأى بعينه أحذية مصرية ، مصنوعة في دمياط ، تنزع بطاقتها الداخلية ليكتب عليها زورا وبهتانا أنها مصنوعة في خارج مصر . وكل ما أرجوه أن يكون المصريون قد أدركوا الآن واجبه نحو أمتهم ، وأن من غير المعقول أن تنهض صناعتنا . دون عطفنا وتشجيعنا ولو اقتضى ذلك منا بعض التضحية .

والأثاث المصري أصبح يضارع الأثاث الأوربي . ويمتاز عنه برخص الثمن . ولم يعد ينقصه إلا الكثير من اهتمامنا وتشجيعنا .

والحل الثالث والأخير لمشكلة ازدياد السكان ، هو

إصلاح الأراضي البور . إن في شمال الدلتا وحده ،
مساحات واسعة من الأراضي البور تبلغ مساحتها نحو
مليون فدان ، موزعة في مديريات الدقهلية والغربية والبحيرة ،
وهي لا تستغل ولا تنتج ولا تخفف شيئاً من ضغط السكان
في الأراضي الزراعية . وإلى هذه الأراضي يجب أن نتجه
بأنظارنا ، وأن نهتم بها كمنفذ للزيادة المطردة في عدد السكان .
لدينا الآن مئات من متخرجي مدارس الزراعة ينتظرون
عملاً ، وتحشد في أدمغتهم نظريات عملية يودون لو تتاح
لهم الفرصة لتحقيقها عملياً . ولدينا مئات الآلاف من
القرويين ، يريدون العيش ومن واجبنا أن نمهده لهم ،
وينتظرونا في الغد ملايين من المصريين يريدون مكاناً جديداً
ومنتجات أخرى ، ولئن أقعد الحكومة عن الإسراع
في إصلاح تلك الأراضي كلها قلة المال ، ومشاكل السياسة
الداخلية والخارجية ، فإن الجمعية الزراعية الملكية ذات
الآثر المشهود في حياتنا الزراعية ، ترحب بالعمل ، وقد
عرضت فعلاً على أولى الأمر ، أن تمنحها الحكومة من
عشرين ألفاً إلى أربعين ألف فدان ، لتصلحها الجمعية بمعرفتها

هو على نفقتها وبإشرافها ، وعرض خريجو مدارس الزراعة
مثل هذا الطلب على الحكومة ، فلو تعاونت الهيئات
الثلاث - الحكومة والجمعية وخريجو الزراعة - على إصلاح
تلك الأراضي التي لا نستفيد منها شيئاً ، لصارت في القريب
العاجل أراضى زراعية يدفع أصحابها الضرائب للحكومة ،
وينتجون القطن وهو أكسير الحياة الذهبي للخزينة المصرية ،
وقد تكون النتيجة إصلاح حال الفلاح الذي يهيم في ظلمات
الجوع والعوز والشقاء .



ترف بالغ وسقاء اليم

ما أقى شعور الشقى بمرور لحظات السعادة القصيرة
التي تلوح فى حياته التعسة كالبرق يلمع لحظة فى السماء
المظلمة ثم يتلاشى ! ولشد ما يعذبه شعوره بها وهى تمر
سراعا مخلقة له مرارة الذكرى ولوعة الحنين !

لقد قضيت لحظات هادئة سعيدة فى بهتيم ، وهناك
بين الفلاحات السعيدات كنت أنظر إلى ساعتي فى حركة
عصية مؤلمة ، وكنت أود لو أوقف عقربها حتى لا تشعرنى
دقاتها بأن الزمن يلتهم فى جوفه لحظات الهدوء والسعادة
التي نعمت بها هناك ، لولا على أن ساعة الحياة تسير فى
انتظام ، غير مكترثة بآلامنا وآمالنا إلا بقدر ما تكترث
الرياح بذرات الغبار المتطايرة فى الفضاء ! ومرت الساعات
وعدت إلى المدينة ، ولكن ظلت لى غيبوبة الحلم !

وانزعتنى من أحلامي رسالة قصيرة من . الأنسة
« م . أحمد بالحويتية » حملها إلى بريد الأهرام الغراء صباح
اليوم الثانى من سبتمبر . كان كل ما فيها « لن تبخل علينا بلحظات

قصيرة تقضيها في قرينتنا الحوتية على مسير ثلث ساعة من
كوبرى الزمالك . نريد أن نراك وأن نلصق في وجهك
نظرة العطف التي يفيض به حديثك عن الريف ، ونريد
أن نبكى بين يديك وأن نريك بؤسنا، لا لتقذينا منه ولكن
لنشعر بعزاء الرحمة والحنان »

وساقتني قدمي إلى هناك ، رغم يقيني أنني إنما أسير إلى
البؤس والشقاء . لم يكن في استطاعتي أن أصم أذني عن
النداء المتلهف الحار الذي في سطور خطاب الأخت الفلاحة .
قضيت فيها ساعة واحدة ، وكأنا كنت وحدها عمراً
كاملاً من الشقاء ! لقد أثر في قلبي ترحيب القرية وأهلها
كرم لقاء أهلها عن التطلع إلى أجسامهم الهزيلة الشاحبة ،
ولكنني لم أكّد أتجول في القرية ، وأشهد نوع الحياة الوضيعة
الذليلة التي يحيونها حتى شعرت برغبة في البكاء ! وحتى
أيقنت أن من المحال أن تنهض مصر ، وفي جسمها تلك
الأعضاء المريضة التعسة !

فلنعترف بريائنا !

إن في الكثير من أعمال الإصلاح شيئاً من الرياء ،
وتلك حقيقة يجب الاعتراف بها رغم مرارتها ، ذلك لأن

الباحث المدقق حين يقرب المجهر من بعض المشروعات الإصلاحية الهامة ، يرى أنها لم تكن خالصة لوجه الإصلاح المحض ، وإنما قصد منها نوع من الغرور والتظاهر الزائف ! ونحن في حاجة إلى عيون نفاذة بصيرة تخترق ستار الرياء الذى يلف الشقاء المنحط الكامن فى صميم مصر ، وتتخطى المدن الجميلة المزوقة إلى القرى التى أصبحت وكأنها تحمل العوامل الهدامة فى نهضة مصر بعد أن كان تاريخ مصر كما قال حضرة الأستاذ حسين عنان السكرتير العام لوزارة الزراعة « يكاد يكون جهاداً فى استثمار الأرض ، فقد أقام الشعب المصرى مجده على أسنة الفئوس »

ولست أجد وصفاً أبلغ فى الدلالة على حالنا من البيت الكبير ، يروك ما على جداره الخارجى من نقوش ورواء ، حتى إذا ما تغلغلت فيه طالعت منه بناء خرب مهدم ، تتصاعد منه رائحة نتنه عفنة ، وتحتل الحشرات ضيافة منه .

هذه المباني الفخمة التى تملأ المدن والتى شيد أكثرها أغنياء فروا بأموالهم من سكنى الريف القذر ، وتلك الطرق النظيفة الممهدة ، والمدارس المنبثة فى كل حي من أحياء المدن ، والمستشفيات الكثيرة التى تسهر على صحة السكان ،

هذه الأشياء وأمثالها ما كان أصدقها في الدلالة على نهضتنا
لولا أن وراءها قرى يحيا فيها ملايين المصريين ، حياة
لا يشرق فيها شعاع واحد من أشعة الإصلاح والاهتمام ،
حياة شقية أليمة مريضة ما أشك في أنها ستبث سمومها في
المدن كما يقتل الجسم عضو واحد مريض !

هذه المشروعات الإصلاحية ما كان أجدرها باسم
النهضة لولا أنها طلاء مزوق لبیت خرب مهدم !

وبعد هذا نخدعنا ويطربنا إطرار الأجانب حين يهدئون
شهوة غرورنا ويؤكدون لنا أن مصر صارت حقا قطعة من
أوروبا ؟

أقول الآن - وأنا أعنى ما أقول - أنهم يسخرون منا
ويتفككون بنا ، وإلا فما هذه المساخر والأكاذيب ، التي
يفترها كبار الكتاب الغربيين على مصر وأبنائها في كبريات
صحفهم ومجلاتهم ؟ وفيم تشبثهم بالتهامنا ما داموا يعترفون
بمدنيتنا الأوربية ؟ وهل ترى يغنيننا هذا الاعتراف يوم
نطالب جديا بحقوقنا وحين تريد أهاؤهم على إنكار
ما أكدوه من قبل ؟

إن المؤرخ المحقق ، حين يهمله أن يسجل لمصر نهضتها ،

لن يكتفى بالنماذج التي تقدمها له مثلة في المدن ، وإنما سيتجول في نواح أخرى غير هذه المدن ، ليشهد من شقاء الفلاح وانحطاط مستوى معيشته ، ما نحاول دائماً أن نتغافل عنه ونتناساه ، كيلا يشوه علينا ترفنا ونعيمنا ! ومثله في ذلك مثل المفتش الماهر حين يفاجئ المدرسة بزيارته ليرى جهودها في التعليم ويحكم لها أو عليها ، فهو يتغافل عن نماذج « الكراسات » التي يجتهد المعلمون في اختيارها ، ليبحت في كراسات يطلبها بنفسه من التلاميذ !

والأجنبي ، حين يهمله أن يقف على حال مصر لغرض في نفسه ، أو لمجرد المتعة ، أو لمحض الاطلاع ، أترى يشرفنا عنده جمال المدن وبهاؤها حين ينتقل فجأة من القاهرة إلى شبرا البلد مثلاً ، وكأنما يقذف به من النعيم إلى الجحيم ؟ أتراه لا يحتقر زيفنا ورياءنا حين يسير به ترام الهرم من الزمالك إلى الجيزة ، فيشهد عن يساره أنوار العائمات الساطعة تخترق الظلام متمزجة بضحكات أهل الثراء والنعيم بينما يرى عن يمينه قبيل « العجوزة » أكوأخا حقيرة واطنة لا يصلح أحدها لسكنى الحيوان ، وتضىء كلا منها ذبالة ضئيلة باهتة لا تقوى على اختراق الظلام ، بينما تختفي في

حيات الهواء أنات ضعيفة من أجسام منهوكة مريضة، تتراكم
في هذه الأكواخ وقد هدمها العوز وأذلها المرض والشقاء.

بينما كان أعضاء المؤتمر الجغرافي الذي انعقد في القاهرة
في إبريل سنة ١٩٢٥ يزورون القصير طبقاً لبرنامج الزهرة
الذي أعدته لهم الحكومة المصرية، أرادت آنسة بلجيكية
في كثير من الأحيان أن ترى « عزبة مصرية ؟ » ثم اختفت
الآنسة وكأنما ابتلعها الأرض ؟ أين عثروا عليها بعد
الجهد ؟ في قرية مصرية من القرى البائسة التي لا تشرفنا
بالطبع وفي يديها آلة التصوير تلتقط بها مناظر شقية قدرة،
لا أقوام يتخبطون في ظلمات الفقر والمرض، لتعود بها إلى
بلادها وقومها وترىهم نماذج من حياة المصريين ! ولعلها
نسيت أمام ذلك البؤس الآليم، الصور الشيقة التي أعدها
البرنامج ! ومن يدري ؟ ربما أصبحت هذه الصور وثائق
في يد السياسة الغربية، تقدمها دليلاً على انحطاطنا وقت
الحاجة، كتلك الصور التي يلوح بها موسوليني، ويرى فيها
مبرراً لإخراج الحبشة من عصبة الأمم، حتى يخلو له الجو
ولا يفسد احتجاج جنيف عليه لذته وهو يلتهم الفريسة
في نهم واستمتاع ؟

لست أجهل أن نسبة الإصلاح لا يمكن أن توزع
عادلة على جميع البقاع المصرية - وهى ليست كذلك فى
أوروبا - ولست أجهل ما للنظرية التفاوت فى الثروة من
أثر كبير فى حفظ كيان المجتمع ، ولكنى أفهم أن التفاوت
فى الثروة ، ليس معناه أن يكون نصف الناس ملوكا ،
ونصفهم شحاذين مثلا ، كما أفهم أن صعوبة حفظ النسبة
فى توزيع الإصلاح ، ليس معناه أن ترفل المدن فى ترف
بالغ وتهيم القرى فى شقاء أليم !

أصلحوا المدن ، ارتقوا بها إلى عظمة المدن الأوربية
لكن لا تنسوا القرى ومن فى القرى !

اجعلوا المدن قطعة من صميم أوروبا كما تريدون ، ولكن
على ألا يكون الفرق بينها وبين القرى ، فرق ما بين السماء
والأرض !

لقد توهم البعض أننى أبتغى إنهاض الفلاح ، عن
طريق رفع سعر الحاصلات الزراعية ، حتى يبقى له بعد
دفع الضرائب وأجر السهاد والرى ، ما يمهد له حياة معقولة ،
ولكنى لم أفكر فى هذا ولن أفكر فيه ، ذلك لأن الأخذ
بتلك النظرية الخاطئة - إن أمكن ذلك جدلا - معناه القضاء

على ثروتنا ، واضطراب ميزانية الدولة ؛ لأن انخفاض سعر القطن مثلاً ، هو أكبر العوامل التي تمنحنا قوة المنافسة العالمية وتثبت أقدامنا في المحيط الاقتصادي المضطرب ، وقد أيد ذلك الرأي ، الأستاذ جون تود كبير خبراء القطن في إنجلترا فقال : « كان القطن المصرى يخشى عليه من مزاحمة أقطان السودان وبيرو وإفريقيا الشرقية ، ولكن الآن وقد أصبح القطن المصرى أرخص أقطان العالم نسبياً ، فقد بدأ يسترجع مكانته ، وأصبح ينافس الأصناف المتفوقة من القطن الأمريكى منافسة جدية » ، فإصلاح حال الفلاح عن طريق رفع الأسعار يكاد يكون مستحيل التنفيذ والفائدة .

إصلاح الفلاح يجب أن يقصد به تمكينه من زيادة الإنتاج ، ولن يتيسر له ذلك إلا إذا مهدنا له حياة صحية ممكنة ، وإلا إذا عملنا على تخفيض نفقات الإنتاج .

يقوم الفلاح المصرى بواجباته نحو الوطن كما لا يقوم بها سواه ، إنه يطيع القوانين ، ويدفع الضرائب الفادحة ، ويتقدم إلى الخدمة العسكرية دون أن تساعد ظروفه المادية العصبية ، على تمثيل مهزلة البدل النقدي ، الذى يعتبر وصمة

فى جبين المصريين ، وهو بعد بعمل نهاره وليله فى مل
أسواقنا بالخيرات ، وخزانة الدولة بالمال ، فأما حقوقه
فأما واجباتنا نحوه ، فعبثا نعر على شىء منها ولو بمصباح
ديوجين !

إن الفلاح الذى يملك ستة أفدنة دخلها أربعون جنيتها
يدفع اثنى عشر جنيتها ضريبة سنوية للأموال ، عدا ضريبة
الخفر ، وهو بعد هذا لا يشعر بأننا نحس بوجوده إلا
ساعة يطالعه وجه الصراف ، بينما يدفع ساكن المدينة ثلاثة
جنيهاً عن مثل ذلك الدخل فتمهد له الحكومة سبيل
العيش الآمن الصحى الراقى ، فهل تكون القرية جزءاً خارجاً
عن الحدود المصرية ؟ هل هى من القلة والتفاهة بحيث
لا يؤثر شقاؤها ومرضها فى جسم الأمة ، ولا يعوق سير
القافلة ؟ أم قد فرض القانون حقوقاً لسكان المدن وواجبات
على القرويين ؟

يقول « الفلاح المسكين » : « لقد عزم كثير من إخوانى
الفلاحين على الهجرة من أوطانهم ، فهل لك يا سيدتى أن
ترشدينا إلى بلد نعيش فيه آمنين مطمئنين ، ولك من الله
الأجر الجزيل ؟ » وأنا لا أملك إلا أن أوصيهم بالصبر

إن كان إلى الصبر سبيل . إن الفلاح يفارق القرية الحبيبة إليه وفي قلبه لوعة وفي عينيه دموع حبيسة توشك أن تنهمر لولا الحياء المداراة . والفلاحون يتحملون هول الفراق لو كان هناك مكان آخر يعيشون فيه آمنين مطمئنين ، ولكن أين هذا المكان وكل الأراضي الزراعية في مصر تضيق بسكانها ، وكل القرى المصرية يغمرها الشقاء ؟ لم يبق إلا أن ننتظر كلمة المجلس الاستشاري لمصلحة الأملاك في مسألة إصلاح الأراضي البور ، ويهمني والمجلس على وشك الاجتماع كما جاء في الأهرام الغراء ، أن أردد ما قاله سعادة مدير الجمعية الزراعية الملكية : « إذا لم يستففع بهذه الكميات العظيمة من المياه التي صرفت الملايين من الجنيهات المصرية في سبيل الحصول عليها ، لتحسين وسائل الري الحالية وإصلاح الأراضي البور ، فإنها تترك لتذهب سدى في البحر الأبيض ، وهذا يبدو أمرا عجيبا أمام العالم ، مهما قدمنا المعاذير والأسباب فالواجب القيام بأسرع ما يمكن في العمل على إصلاح البور من الأراضي ، حتى يمكن الانتفاع بهذه المياه ، وتشغيل الأيدي العاملة العاطلة التي تضيق بها

الأقاليم المصرية ، وتكتظ بها المدن ، فيمكن تخفيف
الضغط عنها واستغلال رؤوس الأموال المخزونة في الإنتاج
النافع فيقل العاطلون »

فإذا ماسعت الحكومة إلى الإصلاح العاجل ، فيومئذ
نوفق إلى إنشاء مناطق زراعية جديدة يفر إليها الفلاحون
الذين ضاقت بهم قرَاهم ، وضاقوا هم ذرعا باستبداد العمد ،
فيجدون شيئاً من الرحمة والرخاء ، ينسيهم ما قاسوه من
ظلم وقسوة وشقاء .

لقد قست الحياة على سكان الصحراء الغربية ، من
المصريين الأعراب الذين يعتمدون على الزراعة في عيشهم
ففروا إلى الإسكندرية ، مفضلين ذل الخدمة وقسوة العمل
في المباني ، على الموت جوعاً ، وأحسب أن هجرتهم يجب
أن تكون نذيراً لنا ، كي نفكر في البؤس الأليم الذي انحط
إليه عيش الفلاح ، أما إذا تغاضينا أو اعتمدنا على الإصلاح
الاسمى البطل ، الذي لا يتناسب مع فداحة شقاء الفلاح
فإن العاصفة ستفاجئنا ويومئذ إن نملك إلا قولنا « ليتنا !! »
حين لا تنفع ليت .